مهنة الترجمة .. والمترجم بين الاحتراف والموهبة والإبداع

حفناوي بعلي
جامعة باجي مختار
عنابة - الجزائر -

ملخص:
تمثل الترجمة الحبل العصبي الرئيسي قي سريان فعالية نظرية المعرفة، وتدفع آلية البناء الحضاري إلى تمثل التواصل بين الثقافات وبعضها بعضا، حتى أوشكت أن تكون الوسيلة الأولى، لتحقيق عالمية الخطاب الفكري والأدبي والعلمي والثقافي، بين الجماعات البشرية، وكذلك بين الحقول المعرفية المختلفة إلى الدرجة، التي يمكن أن تتوقف بدونها عجلة العلم والتطور. ليست الترجمة وهما، كما تزعم مؤلفات عديدة، بل هي موهبة فردية وحرفية وإبداعية تحتاجها الفنون والمعارف، وهي أولا وقبل كل شيء مبحث تواصلي، يسعى إلى تحقيق نفس المفعول الموجود في اللغة. وتعد كفاءات المترجم ومهاراته التقنية والمعرفية عوامل ذهنية أساسية، قد تيسر أو تزيد في تعقيد "خفيات الترجمة ".

كلمات مفتاحية: ترجمة؛ مترجم؛ احتراف؛ مهنية؛ موهبة؛ إبداع.

مقدمة:

تستمد مسألة المهارة المعرفية للمترجم أهميتها من كون الجزء الأعظم من اللغة، التي نتواصل بها يركز على ما هو ذاتي. ولهذا السبب، فقبل تحليل أي لغة مكتوبة، ينبغي تحليل الخصائص الدلالية الضمنية لها، ومن ثم فإن استعمال المترجم لمعجم ما، أو لما يماثله في اللغة المصدر، يكون في غالب الأحيان قائما على تقدير نسبي وحدسي للتحليل المعرفي للعلاقة الموجودة بين مفهومين، أحدهما مشتق من

اللغة المصدر، والثاني من اللغة الهدف. إن فهم الخصائص الدلالية للكلمات، يجعل هذا النوع من النشاط الذهني حيويا ومتطورا في الآن نفسه، وعندما يقوم المترجم في النهاية، بإنتاج ترجمته في اللغة الهدف، فإنه يكون قد أنتج شكلا معادلا لواقع اللغة المصدر، لا شكلا مطابقا لهذا الواقع.

إن المترجمين بمثابة بنيويين في مقاربتهم، ويمكن الاستدلال على أنه باستطاعة المترجمين إقامة علائق بين القيم الدلالية الموجودة في اللغة الهدف. ومن أجل ذلك، يستعمل المترجم العمليات المنطقية المبنية على معرفة موثوق بها للقدرة الدلالية وللإنجاز، سواء في اللغة المصدر أو في اللغة الهدف. ومثل هذه العمليات المنطقية تتطلب من المترجم مقومات ذهنية داخلية، تجعله كذلك قادرا على التوفيق بين الاختلافات، سواء اللغوية منها أو الدلالية في اللغتين معا، وقد تنبق عن هذا نتيجة ترجمية، بعدما يكون قد تم تحويل خصائص لغة معينية إلى سمات دلالية، وبالتالي تؤول تلقائيا من طرف متلقي اللغة الهدف.

إن تطوير مهنة المترجم وحجم الترجمات، وظهور معاهد الترجمة والمترجمين، وميلاد الجمعيات الوطنية للمترجمين؛ المجموعة في الفيدرالية الدولية للمترجمين، وظهور الدوريات المهنية. قد حثت كلها على إعادة النشر حول الترجمة، إن ما ينعكس هو التجربة المهنية الهائلة للعمال المختصين المواظبين، نتيجة تعاليم معرفية جدا لمهارات قديمة. نستطيع القول إن المترجمين والترجمة لم يتخلصوا بعد من النظرة الأدبية والشديدة والهاوية بطريقتهم، التي تنظر إلى المشاكل المطروحة من خلال تأهيلهم المهني.

الترجمة والمترجم .. بين المهنية والإبداع:

مازالت الترجمة حتى الآن نشاطا يغلب التجريب الحرفي، فلا يتناولها البحث النظري ولا الدراسة العلمية، ورغم أنها في ثقافتنا نشاط

غزير، على ضآلة مردوده، فإن البحث لم يصل بعد إلى مستوى هذه الغزارة، ولا التفات بالتالي إلى أسباب قلة المردود، ورغم أن الترجمة تقع في نقطة التقاء عدد من الفروع المعرفية كالأدب المقارن، والألسنيات والمنطق والفلسفة والنفسيات والتربية. فإن أي من هذه الفروع لم يعالجها بوصفها نشاطا يقع على تخومه. ورغم أن عملية الترجمة تقع على صلة وثيقة باللغويات، فإننا لا نجد اللغويين العرب، بمن فيهم المشتغلين في اللسانيات، يهتمون بهذه لعملية اهتماما جديا ومثمرا. هكذا فإننا عندما نصف الترجمة بأنها نشاط يغلب عليه التجريب الحرفي، فإن في هذا الوصف بعض التجميل والمراعاة. فالواقع أن الترجمة في بلادنا لم تصبح حرفة بعد، أي أنها حتى كحرفة لا تزال في طور التجريب. ونادرا ما نجد من يعتبرها مهنة أو نشاطا دائما، ناهيك باعتبارها اختصاصا أو موضوعا للمتابعة والاهتمام.

ندعي إذن، أن من الممكن إخراج الترجمة من حيز الهواية والتجريب إلى حيز البحث النظري والعلمي. وحتى في حال اعتبارها "فنا" من الفنون، فلا بد لهذا الفن من الاحتكام إلى جملة من الأحكام، التي تضبط الاشتغال فيه. ولا مفر على ما يبدو من استخلاص هذه الأحكام من النظر في شئون اللغات، أي من الأبحاث الألسنية. فإذا كان من الصحيح أن معظم اللغويين الحديثين لا يعيرون للبحث النظري في شئون الترجمة اهتماما يذكر، بل يرون أنها نشاط مختل. ربما كان الاستنكاف عن معالجة الترجمة في ضوء معطيات البحث العلمي الحديث، وعن إعادة النظر في لغتنا في ضوء المعطيات، هو الذي جعل عمليات الترجمة في ثقافتنا العربية أقرب إلى العمليات الأدبية ، التي لاتخضع إلا للاجتهاد الذاتي أو العبقرية الذاتية.[1]

إن المترجم الإبداعي، يزاوج بين الإشكال وشكله الواردين في النص الأصلي وبين بعض الإشكالات والأشكال التي يقتضيها مجاله

التداولي، مجتهدا في أن يستوفي فيها من المقتضيات المضمونية والمنهجية، ما يضاهي ما استوفاه صاحب النص في إشكاله، ومتى كان الأمر كذلك، اتضح أن الترجمة الإبداعية لا تتلاءم إلا مع مبدأ الكونية المنفتحة، فهو وحده الكفيل بتحرير الفكر، إن تنويعا لاستشكالاته أو توسيعا لاستدلالاته.

إن صيغة "الحرية" التي تتصف بها الترجمة الإبداعية، تتعدى ما تطيقه الترجمة المعنوية إلى ما تجيزه ضروب التأليف كالشروح والتفسيرات والقراءات والتحليلات، من غير أن تقرر في ذلك ضروب بعينها، إذ يتعلق الأمر بقدرة المترجم في الإبداع، فإن ضعفت قدرته، جاء بنقل أشبه بالشرح، وإن قويت جاء بنقل أشبه بالقراءة، على هذا تكون الترجمة الإبداعية ضربا لا تكاد تعرفه طرق الترجمة المقررة.[2]

إذا كانت العبارة الشائعة عن الترجمة "الترجمة خيانة"، تريد أن تؤكد أن المرء مهما يبذل من الجهد في ترجمته، فلن يستطيع أن يصل إلى نقل الأصل نقلا تاما، فإن عبارة "الجميلة غير الأمينة"، جاءت لتنقذ الترجمة والمترجم. إن المترجم يؤقلم النص الأجنبي ويدجنه، وقد يكون ذلك ناتجا عن استيعاب وهضم للنص الأجنبي، ثم إعادة كتابته من جديد في الأدب المتلقي، وهذا ما حدث مع ترجمة إدغار بو إلى الفرنسية، فثمة كاتب أمريكي ساخر، وصل به الأمر إلى حد القول: إن هناك كاتبين يحملان اسم "بو"، أحدهما أمريكي وهو كاتب متوسط جدا، والآخر فرنسي عبقري هو إدجار بو المترجم، والذي أعيد تشكيله على يد بودلير ومالارميه. إن ترجمات كهذه، وهي أعمال كبرى في لغتها الأصلية، قد تحولت - دون أن يعني ذلك عدم العودة إليها في أصلها - إلى أعمال كبرى في لغة أخرى. إذا كانت "الجميلة غير الأمينة"، قد انفكت من نسج النص الأصلي في اللغة الأجنبية، فإن نظرية القراءة جاءت لتحطم كل ما تبقى من قيود الفكر

والمعنى، لترى في الترجمة قراءة تدرس في إطار نظرية القراءة المفتوحة.

وبهذا لا يمكن العودة إلى الحديث عن خيانة الترجمة أو عدم أمانتها أو دورها الهامشي. وإذا كانت مهمة المترجم تكمن في التفسير والترجمة والنقل، فإنه ينقل نصا من ثقافة إلى أخرى، ويدخل نصا في سياق آخر. وإذا كانت قراءة النصوص تنتج نصوصا، فإن قراءة نص أجنبي ستنتج نصا ثابتا سجين ضرورات متناقضة في الظاهر: فمن جهة احترام النص الأصلي، النص المصدر، ومن جهة أخرى ضرورة إنتاج نص آخر، النص المستقبل، وهو نص مبدع أو أعيد إبداعه. يجب أن يفهم من إعادة الإبداع، هذا الخلق الغريب تحت رقابة النص الأول، مع فرص حرية ضرورية، وتأرجح بين الانقياد المطلق (ترجمة أمينة، أو أدبية، أو حتى ترجمة مقابلة للنص)، والحرية في الاقتباس أو التغيير، أو التزوير في الوقت نفسه.

إن دراسة الترجمات تنتمي في المقام الأول إلى تاريخ الأدب المتلقي، بمعنى أن ترجمة نصوص بعينها تعكس حاجة اجتماعية وثقافية وسيكولوجية، خاصة بهذا الشعب الذي ينتمي إليه الأدب المتلقي. إن الترجمة تتيح لنا أن نتناول الكاتب واللغة والجمهور من منظور جديد، حيث المترجم موزع بين الأمانة للنص ومزاجه الخاص، بين النقد والإبداع، وحيث الجمهور الذي يجب احترامه ومتطلباته أكثر من ذي قبل، وفيما عدا الترجمات الخفية التي تمت على سبيل التمرينات الأسلوبية، أو حبا في عمل أدب أجنبي، فإن الترجمة تخضع دائما لدقة صارمة في الدعاية، وتعلن نفسها بصراحة كسلعة تجارية.

إن المقابلة بين أفق توقعات العمل الأصلي في بلده، وأفق توقعات الجمهور المتلقي في بلد آخر، ستكشف لنا الخصائص المميزة

لكل أدب ولكل شعب، حيث يتجلى ذلك في الرفض أو القبول، أو درجة الترحيب التي يبديها شعب من الشعوب عن تلقيه نصوصا أجنبية. وكما سبق أن قلنا إن حاجة السوق هي التي تحكم اختيارات الترجمة، وهي حاجة مقيدة بالأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.[3]

إن النظرة العلمية والوظيفية، التي طالما حملها المترجم في كل مصر وعصر، فلطالما كان دور المترجم في القديم متواضعا متواريا ثانويا أمام المؤلف، حين كانت كلمة الترجمة تفيد مدلولا "عدائيا" في اللغات الرومانية، إذ كانت ترادف بالمغالطة. كما ظل مفهوما شاحبا في الغرب باستثناء ألمانيا، ولا سيما في اللاتينية. فقد كانت تعني القيادة بواسطة، وهي مجاورة في الدلالة للعبارة "الإحالة على القضاء"، ثم جاءت كلمة "دروغمان" منحوتة من اللغتين الفرنسية والإنجليزية، تعني الترجمان الدليل في الشرق الأوسط. وبهذا الإطلاق المختزل الذي يقتاد القارئ من يده، ليعبر به عوارض اللغة ليس إلا. ثم تألق في القرن التاسع عشر ن حيث ألحق بالقنصليات العامة، وكان يرتدي بزة مطرزة بالذهب، مما ينم عن مبلغ أهميته آنذك. إلا أنه سرعان ما يرتد في عين الرحالة الإنجليزي "سيكس" إلى مجرد من يدل على الدببة، وهو يحلق بجموع السواح.

ويبلغ الانتقاص قديما بالمترجمين إلى حد الارتياب في شأنهم والسخرية بهم، فقد شبه القديس جيروم مترجم الكتاب المقدس بالأنثى. وفي آسيا كاد مترجم أن يتعرض إلى الإعدام، لكونه أصبح ينطق بلسانيين. مما يذكرنا بمقولة: إنسان ذو وجهين، أضف إلى ذلك مقولة أخرى بالإيطالية، التي تعطي بالعربية: "من يترجم فقد خان"، لتكتمل مهانة المترجم. والمسكين ليس أحسن حالا في القرن العشرين، وعلى هذا النحو يصفه "لاربو": المترجم كائن مجهول يجلس في المقعد الخلفي، يقتات من الصدفات، الخدمة شعاره، يتوارى بذكاء وتكتم،

شريف متورع، يعرف كيف يقاوم بشجاعة عفاريت الاصطلاحات، وشياطين المعاني المتعاكسة. وباختصار، فهو يجتهد في الظهور، وكأنه قديس مثل سيده القديس جيروم. وفرق في تحديد الأهداف بين نظرة بوشكين إلى المترجمين كأنهم جياد الإبدال، ونظرة مدام دو ستايل إلى الترجمة، كأنها تكرار للموسيقى بآلات مختلفة.

وتعتبر الموسوعية لدى المترجم واجبا وضرورة علمية، يجسدها الاطلاع على بيئة النص، وتتبع أصوله من حيث الأعراق والأجناس والأنواع البشرية التي نشأ فيها، ومستواها الحضاري والثقافي وبعدها التاريخي، إنها بيئة المجتمع الأصلي للنص بمعناها الأوسع. إن معاني النص تتجاوز حدوده اللسانية والخطية، بل حدود الألسنية الداخلية إلى بيئات وأبعاد وظروف تؤثر في عملية الكتابة، لأن النص المنقول من بيئة لأخرى لا بد أن ينقل الجوهر الأصلي للمعنى، من بيئة الأصل إلى بيئة الهدف، والنابع من محيط المجتمع واختلاجاته، أي ذا المعنى الأصلي للنص، يفهم بسهوله في البيئة الأولى لأنها منبعه، لكونه نشأ وسط تضاريس تلك الحضارة متطورة كانت أم بدائية.

كما أن هناك موسوعية فنية، لأن كل مترجم هو فنان على طريقته وله وسائله وتقنيته وحيله، إزاء حواره مع مختلف المواضيع، وبهذه الوسائل لنية والبراعة التقنية، يمكن للمترجم أن يصيغ تجربة على نحو جمالي وفني راق، قد يتجاوز بعض الأحيان القيمة الجمالية من النص الأصلي بذاته، كما يمكن لهذه الفنيات المبدعة أن تغطي الجوانب، التي لا يمكن الوفاء لها بحال من الأحوال، وتغطي مواضيع الخيانة في النص، والتي تحمل كل منها رسالة لها تأثير خاص على منحى النص، مثل الجانب الصوتي والصرفي والمعجمي.

وبديهي أن المترجمين هم أهل معرفة، وهم بالفعل كذلك إذ أنه على المترجم، لكي يصل إلى المعرفة، أن يتعرف على كل شيء له صلة مباشرة بطبيعة ومحتوى هدف لغة مصدر معينة. وعندما لا تكون هذه اللغة قابلة للمعرفة من طرف المترجم، فإن الإنتاج المتوخي سيكون مستحيلا، فينبغي أولا، أن يتم فهم اللغة المصدر وإدراكها، ينبغي أن تكو هذه اللغة داخلة في المجال السنني والدلالي لقدرة المترجم، وإذا لم تكن اللغة المصدر معرفية، فإنه يعجز عن تحليل أسباب الفشل أو أسباب النجاح. وبعد أن يكون قد توفر على معرفة باللغة المصدر، آنذاك فقط يمكن له أن يتعامل معها باعتبارها موضوعا للفكر.[4]

وبعد؛ فما هي الترجمة ؟ قد يرى البعض أنه من العسير أن نجد لها تعريفا جامعا مانعا، وحسبنا أن نقول إن الترجمة هي نقل صورة أمينة كل الأمانة للأصل مع سلامة اللغة المنقول إليها، من حيث دقة الفهم، ووضوح الأسلوب، وإحكامه واصطناع المصطلحات المرادفة للمصطلح الأجنبي، وتحرير النصوص، وضبط أسماء الأعلام.

أما الترجمة الأدبية، فهي أصعب من ترجمة الآثار العلمية والثقافية، ذلك أنها تقتضي أن يكون المترجم يجيد اللغة المترجم إليها، وأن يتقمص شخصية الكاتب الأجنبي وخياله وروحه، ويعايش الأثر الذي يترجمه، وخاصة إذا كان هذا الأثر من روائع الأدب العالمي.

ولا بد للمترجم، وخاصة في الآثار العلمية والثقافية، أن يكون واسع الثقافة ملما بالكثير من العلوم والمعارف، واعيا بأسرار اللغة التي ينقل عنها واللغة التي ينقل إليها، مدركا للفروق الدقيقة بين اللغتين، وكذلك يشترط في المترجم أن يكون من أبناء اللغة التي ينقل

إليها، وهو مبدأ أقرته هيئة اليونسكو. ثم إن البراعة في الترجمة، هي أن يشعر القارئ أنها قد كتبت أصلا باللغة المنقول إليها. ومن الأمور التي يجب أن ينتبه إليها المترجم ويتداركها:

- ألا يلتزم الترجمة الحرفية فيفسد بذلك الأسلوب اللغوي، وليس معنى ذلك أن يغفل أي معنى أو ظلا لمعنى ورد في الأصل الأجنبي، وإنما يراعي سلامة اللغة المنقول إليها والتي يكتب بها.

- يستعمل المترجمون المحدثون الأسلوب الفضفاض، وينسون القاعدة البلاغية، التي تقول أن كل ما يحذف من غير إخلال بالمعنى يكون أبلغ.

- يشرط في المترجم أن يختار الكلمة التي تتمشى مع السياق الأصلي.

ولا شك أن العقبات التي تقف في سبيل الترجمة عقبات ليس بالهينة، وهي كثيرة تفوق الحصر وأهمها:

- أننا نسير في الترجمة على خطة غير مدروسة، ذلك أن الترجمة تجري على هوى المترجمين في كثير من الأحيان، فمن شاء ترجمة كتابه ترجمه، والكتاب لا يظهر إلا إذا وجد له ناشرا ينشره، ودور النشر الخاصة تحجم عن نشر أي كتاب إلا إذا كان الربح فيه مضمونا.

- ندرة عدد المترجمين المجيدين الآن، حتى أصبحوا لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة.

- عدم وجود معاهد متخصصة ورفيعة المستوى أو ذات شهرة، لتخريج المترجمين الأكفاء. ثم أن معاهد وأقسام الترجمة الملحقة بكليات الآداب عندنا، لم تلق العناية الكافية، فالإقبال عليها محدود،

وهي لا تقتصر في الاختيار على الطلبة الموهوبين، حيث أننا لم نسمع أنها خرجت مترجما نابغا واحدا.[5]

وعلينا أن نحذر الغرباء دوما: المترجمين المرتزقة، مترجمي المقاولات، الذين يترجمون كل شيء، وفي كل المجالات، وحتى عن لغات وسيطة، الكتبة الكذبة، الذين يتسببون في كراهية الناس للأدب، بسبب سوقية ترجماته، فيتساءلون باستنكار: ماقيمة هذا الذي ترجموه؟

ذلك لأنه دون عشق المترجم المبدع وحسه بسخونة لغته وطراوتها، وكذلك حسه بالنص الأصلي، ثم ما هو أكثر خطرا في كل ذلك امتلاكه خريطة الروح، التي امتلكها كمبدع لكل عمل أدبي يقرؤه أو يترجمه، والتي دونها لا يمكن فهم أو تقدير قيمة أو تفرد أي عمل أدبي، أو إدراكك مثلا أنه لايمكنك الدخول إلى الأعمال الروائية والقصصية لكتاب القرن العشرين كله، دون المرور لهم من البوابة الهائلة لارتفاع دستويفسكي، كما لا يمكنك أن تدخل العالم القصصي والروائي لأدباء أمريكا اللاتينية، دون المرور بالبوابة الملكية الإسبانية، من سيرفاتيس، والبوابة الشمالية: وليم فولكنر، وجيمس جويس، وكافكا.

ولذلك فالمبدع مترجما، سيظل أملنا الوحيد إذ هو الذي يدرك جدا أن للنص الأدبي تكوينا بالغ الخصوصية والتفرد، مخلوقا من طينة تتنوع وتختلف وتتشابه مثلما البشر، مبدعو هذه الأعمال وكل عمل يحمل بصمة مبدعة؛ بصمة تاريخه وموطنه، ولا يمكن أن يتنصل منهما أو يخلطها بدماء أخرى، ليس هذا فقط، بل إنه ينتمي لنوع أدبي واتجاه وتأثرات، بعضها يمكن رصده، وبعضهامن المستحيل على المبدع نفسه أو مترجمه أو حتى ناقده أن يحيط بها كلها.

والمترجم المبدع لا يتوقف عند حد معرفته باللغتين، بل يمتلك فوق ذلك الحس باللغة والرهافة، التي يميز بها سمات لغة كاتب واختلافها عن لغة كاتب آخر داخل اللغة الواحدة، بل التميز بين تغير أحوال الأداء للكاتب نفسه: توهج تجربته أو خفوتها وانطفاؤها، والمفردات وما يطرأ عليها في مضمار رحلته الإبداعية: ما الذي يتنحى ويموت منها، وما الذي يتم نحته وميلاده؟ ما طاقة إشعاع كل مفردة وأداؤها لما تعنيه ضمن شحنات المفردات الأخرى في الجملة، فالمقطع فالقصل، ثم في العمل كله.

وإذا لم يكن للمترجم هذا الحس الفائق الرهافة للتمييز دائما بين إيقاع وإيقاع، إيقاع خطوات رقص المبدع أو خطوات ركضه، خطوات تطوحات هو خطوات انكفاءاته، توقف الخوف، السكون، الارتماء في وهاد الصمت. هذه كلها أحوال تتبدى ونكتشفها في اللغة المكتوبة بها، وحس المبدع المترجم فقط، هو الذي يمسك بإيقاع كل ذلك، ومن يتمكن من ذلك كله فهذه شهادة إبداعه، حتى لو لم يكن يدرك ذلك عن نفسه. مبدع العمل الأصلي يقدم لنا إنجازه بكل هذه السمات والنضارة لنا، وكل منهما المبدع الأصلي والمبدع الثاني، لابد أن يكونا متكافئين إلى حد التناظر، لتتحقق هذه اللغة المشتركة، أو فلنقل هذه اللغة الواحدة، التي تخلقت من لغتين. المبدع أمره هين: أما المترجم الذي يطمح إلى إبداع ترجمته، فيبدو أن أمره أصعب بما لا يقاس.[6]

على المترجم أن يتزيا بالثوب الاجتماعي، لأن ظيفته في هذه لحالة تحمل طابعا اجتماعيا، كونه يساهم بطريقة أو بأخرى في حوار المجتمعات والحضارات، بدافع اجتماعي وضرورة حضارية لا بدافع فردي، لأن عمله لا يثمن في الواقع إلا في إطاره الاجتماعي، ومن هذا المنطلق الاجتماعي والحضاري بالذات تصاغ قيمته الحقيقية. أما القيمة التاريخية للعمل فتحمل الصبغة الحضارية لهذا الشعب، والمرتبطة

بشكل عميق بجذوره التاريخية، وإذا تناول المترجم عمله بهذا المنظور، فإنه يقدم خدمة جليلة لنشر التاريخ الإنساني وعولمته، ويسجل في الوقت ذاته موقفا تاريخيا للترجمة في مرحلة ما، لأن ترجمة عمل ما في فترة معينة لا ولن تكون نفسها بعد عقد من الزمن، لأن الأمر يتعلق بما يسمى ذاكرة للغات في جانبيها التاريخي والزمني، لأن الترجمة هنا تكون بمثابة التأريخ في مرحلة لغوية وحضارية واجتماعية ما، مثلما عكسته ترجمة كليلة ودمنة، التي صيغت بلغة تستعمل في جل مظاهرها صبغة اجتماعية وحضارية لوسائل العيش التي يستعملها الإنسان العربي آنذاك من خلال لغتها، فهي بالتالي ترجمة عل حضاري، له موقع ومساحة في تاريخ أمة من الأمم .

ويبدو أن تلك السياقات الثقافية والحضارية، تخرج بنا عن حدود الألسنية الداخلية وتتجاوزها، إلى أنماط تواصلية أخرى خارجية، تستمد حياتها من علاقات ومجالات محيطة بالظاهرة اللغوية، قد تأتي حتى من علوم مجاورة تلقي بضوئها على أهمية الألسنية الخارجية؛ كعلم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ والأسلوبيات اللغوية وآثارها، لتصب كل تلك الميادين الشاسعة في إطار رحب، هو ما أطلقنا عليه بموسوعية المترجم، المطالب بتتبع أصداء المعنى عبر تلك المجالات، كي يصيغ تجربة متميزة، تمنحه الجدارة بمركزه، الذي يتسم بالوسطية بين مؤلف بلغة وبيئة وتجربة، تختلف كل الاختلاف عن تلك التي عيشها القارئ، فيجد المترجم نفسه يبحث عن فناة تصيغ للقارئ فهم تجربة المؤلف بلغته، وتتجسد تلك القناة في لغة المترجم الخاصة، والتي تخول له لعب الدورين في ذات الوقت في دور واحد، مجسدا العبقرية بكل أبعادها بدوره كأول قارئ للنص وثاني مؤلف له، جراء ما يستلزم النص من تغيرات ضرورية تفرضها شروط لغوية ، وبيئة ومفهومية لا يعيشها غيره.

لقد كان الكتاب المترجم والترجمة حجرا الزاوية في كل نهضة ثقافية، إن الترجمة الوسيلة دوما لبلوغ الهدف وإدراك القصد، وتجاوز التأخر والرمز إلى تطلع الإنسان إلى تجاوز الواقع المتخلف إلى المستقبل الحضاري المنشود. والترجمة أنواع، ويجري عادة التفريق بين نوعين من الترجمة: الترجمة الشفوية الفورية، والترجمة الكتابية.

- الترجمة الشفوية الفورية:

وجدت تلبية لاحتياجات التفاهم بين متكلمين بلغات مختلفة، والمترجم الشفوي، هو مترجم وسيط بين شخصين لا يعرف كل منهما الآخر. بمعنى أنه شخص يقول شفهيا في لسان ما، مرادف ما قيل في لسان آخر. ولذلك تعني الترجمة الفورية أو الشفوية، تفسير أو نقل ملفوظ من لسان إلى آخر بطريقة آنية أو لاحقة. وبعبارة أوضح، إن الترجمة الفورية هي الطريقة الشفهية للترجمة. وقد يجمع الترجمان التحريري معا، فيقول شفهيا ما يترجمه كتابيا والعكس صحيح.

وعلى الرغم مما يبدو من أن الترجمة الفورية والترجمة التحريرية كيانان مستقلان، إلا أنهما نشاطان ينقلان المعنى من نظام لغوي إلى نظام لغوي آخر، ومن جماعة إلى أخرى. وهي قديمة النشوء إلا أن الحديث عنها قليل قبل عصر النهضة الأوروبية. كما أن غياب المترجمين الفوريين من المصنفات التاريخية، تفسره الوضعية الاجتماعية لهؤلاء المولدين، إن على المستوى الإثني أو المستوى الثقافي : فقد كانوا نساء أو عبيدا أو من طبقة دنيا.[7]

وصارت في العصر الحالي صناعة أو اختصاصا، قائما بذاته له معاهده وبرامجه وأصوله وأساليبه، يرغب فيه الراغبون ولا يتقنه إلا المتفوقون. وفي الترجمة الشفهية، يكون المترجم بصدد الإفصاح عن جملة ما لتفسير المعنى المقصود، وبالتالي لتفادي أي لبس ممكن،

فهو يفصح بغية التوضيح، وأحيانا قد يقوم المترجم، حسب مستوى تعقيد اللغة المصدر، بتحليل التركيب النحوي للجملة. ويمكن اعتبار المترجم "مفصحا"، مادامت هذه الطريقة تعتبر جزءا من أنشطته الفكرية. وتتطلب العمليات الذهنية في الترجمة، أن يكون المترجم متمعنا، وهذا يعني أنه يفكر بعمق أن يصبح وسيطا، وأن يمعن النظر مليا في لغة المصدر فبل الإقدام على تحرير ترجمته، ولهذا فإن مصطلحي "متمعن" و"وسيط"، بمثابة بديلين لكلمة "مترجم"، فالمترجمون ينجزون عملهم بكيفية تمعنية.

ويعتبر التفسير سمة لأخرى للعملية الذهنية التي يقوم بها المترجم. إن التفسير عبارة عن شرح نقدي أو تأويلي، يسبق إنتاج نص – هدف، ورغم أنه ليس ضروريا في شموليته، فإنه يمكن الاعتماد عليه كأداة لإتقان الترجمة. وإذا كانت بعض اللغات المصدر تفسيرية في طبيعتها، فإن لغات أخرى لا تحتاج إلى شرح، ولا يعد المترجم مفسرا إلا إذا اشتغل على لغة مصدر تفسيرية.

وهناك عدم اتفاق بين كتاب الترجمة حول فيما إذا كانت نشاطات الترجمة التحريرية والترجمة الفورية متشابهة، وفيما إذا كان بالإمكان دمجهما في برنامج مشترك. وبعض الكتاب يعتقدون بأن هناك اختلافا بين الترجمة والترجمة الفورية، وينبغي أن تدرس هذه الاختلافات في مناهج مختلفة. إن الظروف التي يعمل فيها المترجمون والمترجمون الفوريون مختلفة، فرغم أن على المترجمين أن يفوا بالمواعيد، فإنهم لا يعملون تحت نفس الضغط الذي يعاني منه المترجمون الفوريون عادة، إن عمل المترجمين يخضع غالبا للتدقيق والمراجعة، على حين أن عمل المترجمين الفوريون لا يخضع لمثل هذا التدقيق أو المراجعة. ورغم أن الفرق الكبير بين الترجمة والترجمة الفورية، يمكن تلخيصه بوسائل الاتصال، أي الكلام للترجمة الفورية

والكتابة للترجمة التحريرية. إلا أنه وفيما يتعلق بطرائق تعليم الترجمة والترجمة الفورية فإنهما ليستا محتلفتين: كل من الترجمة التحريرية والترجمة الفورية، يجب أن تدرسا في نفس البرامج لنفس الطلبة.

إن الرأي السائد هو أن الترجمة التحريرية يجب أن تسبق الترجمة الفورية، وبهذه الطريقة فهي تشكل أساسا صلبا للترجمة الفورية، وبعض الناس يشعرون بأن هناك تحيزا ينطوي عليه هذا الرأي، والذي يعني أن الترجمة الفورية متفوقة على الترجمة التحريرية، وهذا لا يخفي الحقيقة بأن نشاطات الترجمة التحريرية والفورية يتمم إحداهما الآخر، ويمكن إدراجهما في برنامج واحد لتعليم الترجمة.[8]

إن الصعوبات اللسانية للترجمة الفورية تطرح أمام الترجمان ضرورة إتقان اللغة التي ينقل عنها والتي ينقل إليها، ومعرفة نظام كل لغة. فنظام الصفة والموصوف في الإنجليزية مختلف عنه في الفرنسية، وفي الألمانية يترك الفعل إلى نهاية الجملة المتعلقة، فهل بالإمكان نقل هذه التراكيب بشكل آني أو فوري دون عوائق. من الملاحظ أن الترجمان قد يتأخر عن الخطيب أو يتقدمه. ولسبب ما يفضل الترجمان اكتمال الجملة أو الفكرة للشروع في ترجمتها، لكن لا نظن أن هذا يسهل مهمته: إذ في الوقت الذي يكون فيه منهمكا في ترديد ما قاله الخطيب، عليه أن ينصت لما يقوله هذا الأخير لأنه يسترسل في الكلام. وفي حالة أخرى قد يسبق الترجمان الخطيب، ويعثر على الكلمة المناسبة قبله، وهنا هل يمكن الحديث عن تبصر موهوب؟

من خلال النقطة السابقة نتبين أن التبصر في حد ذاته، إنما هو من طينة ثقافية، فلكي يدرك الترجمان توجه الخطاب، أو يتنبأ باتمام استشهاد معين، لا بد أن يكون ذا ذاكرة قوية ومخزون ثقافي غزير.

وهكذا تمر الصعوبات اللغوية إلى الدرجة الثانية، فلكي تتم الترجمة الفورية، تجب معرفة اللغات، بيد أن هذه المعرفة ليست معطى أولي أو وسيط للعملية، ولا تتحقق القفزة إلا بالقدرة على التخلص منها، أي المعرفة اللغوية. من المطلوب أم يكون الترجمان فصيحا، لكن ليس إلى درجة طغبان فصاحته على فصاحتة المتكلم الأصلي. أما الارتجال فينبغي أن تكون له قدرة خارقة عليه، حتى يتسنى له نقل الإرسالية بسلاسة وتلقائية. ينبغي أن تتوفر في الترجمان لياقة ذهنية للتكيف مع الموضوعات والمواقف. كما لا يفترض فيه الانفعال، إذ ما أثير موضوع يمس مقدساته من عقيدة أو عرق أو وطن.

والترجمة الفورية أنواع وتقنيات، وأهمها: الترجمة الفورية أو الآنية، وهي ترجمة الكلام فور تلفظ صاحبه. والترجمة اللاحقة، أو التعاقبية، وهي ترجمة الكلام، أو جزء منه بعد إلقائه من قبل المتكلم، ومن عيوبها مضاعفة ساعات العمل، خلافا للأولى التي تنتهي بمجرد انتهاء المتكلم. الترجمة الهمسية، وفيها يقوم الترجمان بهمس ترجمته في أذن المستمع. الترجمة المرئية المقروءة، وفيها يضع الترجمان النص الأصلي أمامه، ويقرؤه صمتا في اللغة الأصل، ويترجمه جهرا للمستمعين في اللغة المنقول إليها. وفي الترجمة الفورية نجد أنواعا من التراجمة: ترجمان المناسبات، ويكون في المفاوضات التجارية. الترجمان العسكري، ينسق الاتصال بين الجيوش، ويشارك في استجواب الأسرى وفي العمليات الميدانية. الترجمان العدلي، وهو وسيط بين القاضي والمتقاضي في المحاكم.ترجمان المؤتمرات، وهي من أعسر مهام الترجمان، نظرا لتنوع المضامين وتعدد المفاجآت.[9]

- الترجمة الكتابية:

تتم بنقل المكتوب إلى مكتوب، ويفترض أن تكون هذه الترجمة أكثر دقة وأفضل أداء من الترجمة الفورية، لأن أداتها القلم الورق

وتفسح المجال للتأني والتجويد، وتلك أداتها الصوت واللسان ولا تفسح المجال لتأن أو تجويد. وتتفرع الترجمة الكتابية إلى فرعين:

- **الترجمة إدارية والإعلامية:** وهي التي تدخل في عمل بعض الإدارات والدوائر والمؤسسات، والتي تعني بنقل الأخبار والمقالات لوسائل الإعلام، ومثلها الترجمة السياسة والتجارية.

- **الترجمة الثقافية العلمية:** وهي ترجمة الآثار والمؤلفات الفكرية والعلمية والأدبية والفنية من لغة إلى أخرى.

وهذا اللون من الترجمة عظيم الأهمية والأثر، لأنه طريق التبادل الثقافي بين الأمم والشعوب، والسبيل إلى الرقي العلمي وإغناء المعرفة وبالتالي، هو دعامة التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبناء الحضارة المزدهرة.

وهذه الترجمة الكتابية بدورها تنقسم إلى قسمين؛ هما الترجمة العلمية والأدبية:

- **الترجمة العلمية**: يقصد بها ترجمة العلوم الأساسية أو البحتة؛ كتب الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الحياة وعلم الأرض والنبات وعلم الحيوان، وكتب العلوم التطبيقية؛ الطب والصيدلة والهندسات على أنواعها المختلفة.

تتميز هذه الترجمة بأنه ينبغي أن تتوفر لها الدقة والوضوح في المعنى مع صحة المصطلح، وسلامة اللغة وليس مطلوبا فيها حسن الأسلوب وجمال العبارة.

ويشترط في المترجم اتقانه اللغة العربية واللغة المترجم منها، بالإضافة إلى الاختصاص في المادة العلمية، فالطب لا يترجمه إلا

الطبيب والكيمياء لا يترجمها إلا مختص في الكيمياء. أما كتب العلوم الاجتماعية والإنسانية، فإلى جانب اقتضائها الشروط السابقة، فإنها تحتاج إلى عبارة جيدة وأسلوب شائق، لأن القارئ يحرص على أن تكون هذه الكتب جيدة المضمون والشكل، فيستفيد ويستمتع، ولذا فإن المترجم ينبغي أن يحسن تخير العبارة وإجادة العرض. وتندرج تحت هذا العنوان كتب الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم السكان وعلم التربية والتاريخ والآثار والجغرافية والاقتصاد والقانون والسياسة.

- **الترجمة الأدبية**: إن هذه الترجمة أصعب من الترجمة العلمية، لأن النص الأدبي ليس فكرة فحسب، بل ينطوي على أحاسيس المؤلف وتخيلاته، وهو نص نسجته يد شاعر أو ناثر موهوب، قصد أن يكون جميلا ومثيرا. ولذا كان أمام المترجم أن يأتي بنص مقابل، يتوفر فيه إلى جانب الأمانة في النقل، ما يبرز النص الأصلي، ولا يضعف أثره ولا ينقص من جماله، ولذا قيل بحق لا يترجم الشعر إلا شاعر ولا ينقل الأدب إلا أديب. ويقصد بكتب الأدب دواوين الشعر والمسرحية والقصة الرواية. وأما كتب النقد والدراسات الأدبية، فهي تقع موقعا وسطا بين الأدب والعلوم الاجتماعية والإنسانية موضوعا وأسلوبا.[10]

هناك عدم اتفاق حول متطلبات المترجمين، وإحدى تلك المتطلبات هي القدرة على التحدث والكتابة باللغة المصدر واللغة الهدف. بينما يعتقد أغلبية كتاب الترجمة بأن من الضروري للمترجمين اتقان اللغتين، إلا أن بعضهم يعتقد أن اتقان اللغات ليس كافيا، وأنه يجب على المترجم أن يكون عارفا بكل حقول المعرفة، ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيها سواء وغاية.

بعض الكتاب يعتبر أن "المعرفة العامة" للحقول الكبرى للاهتمام الإنساني اليومي شيء لا يستغنى عنها، سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو علمية، لأنه بدون هذه المعرفة يصبح الاستيعاب والتعبير عن الذات صعب التصور.

وهناك اتفاق حول مؤهلات معلم الترجمة، ولكن هناك بضع نقاط يتفق عليها كتاب الترجمة فيما يتعلق بذلك، إذ يجب أن يكون معلم الترجمة معلما محترفا، ويشترطون خمسة مؤهلات مطلوبة من معلم الترجمة:

- المقدرة الشاملة على النقل.

- الوعي للفوارق السطحية بين اللغة المصدر واللغة الهدف.

- الاهتمام بمشاكل تعليم الترجمة.

- المقدرة على تكييف نظريات التعلم لحقل تعليم الترجمة.

- المقدرة على تطوير امتحانات الإنجاز في الترجمة، وذلك لضبط تقدم التعلم في الترجمة.[11]

- الترجمة الآلية:

هي تدخل الذكاء الاصطناعي عن طريق مساعدة الحاسوب، لأداء فعل الترجمة عن طريق الأنماط اللغوية والمعرفية المخزنة بفعل تراكيب ومصطلحات، يسترجعها في مقابل اللغة التي يترجم منها. والذكاء الصناعي يأتي عن طريق ذلك الجهاز الغبي والمعقد، الذي يحتاج إلى أدق التفاصيل لكي يفهم ما نريد، ولكي ينفذ ما يطلب منه، ومع غبائه فهو وسيلة جيدة لتقديم معظم مهارات اللغات وعناصرها المختلفة سرعة وترتيبا وإحصاء وتصحيحا.

فالترجمة الآلية التي ما انفكت تراود الفكر الابتكاري منذ عقود، وها هي تتجسد يوما بعد يوم، حتى أخذت مشاريع حوسبة الترجمة منذ مذكرة العالم الأمريكي "وارن ويفر"، الذي كان نائبا لرئيس مؤسسة روكفلر بخصوص مشروعات تطوير الحاسوب في مجال الترجمة في عام 1949، تتطور وتتبلور سيما بعد انعقاد أول مؤتمر للترجمة الآلية غب عام 1951، وإنشاء مشروع يوروترا، المعروف للترجمة بين لغات المجموعة، إلى أن تعددت الشركات الخاصة المهتمة بالترجمة الآلية مثل سيستران، ووايدنر، وألبس، ولوغوس في الغرب، وهايكاتس وأطلس ولامب وغيرها في اليابان.

وقد تطور الذكاء الاصطناعي مرارا ومازال يتطور ضمن البرمجيات التي تظهر حديثا، وأغلب من طور هذه البرمجيات رياضيون، وكان هدفهم:

- تحقيق نوع من الاقتصاد في التواصل.

- استخلاص قوانين تساعدهم على صناعة الأجهزة قادرة على قراءة الرسالة وتشفيرها وكتابتها.

- استحداث أنماط فاعلة لتدريس اللغات وتقديم البديل السهل.

وقد طور الدكتور "بيتر توما" نظام الترجمة الآلية، فأصبح الجهاز باستطاعته أن يطور ما بين 20 - 25 مليون كلمة في العام الواحد. وكان ذلك بداية للمتخصصين في البحث عن توجه جديد، يصلح أساسا للترجمة الآلية بحق، فتم الاتجاه إلى البحث في البنية الصرقية، وأفادوا من نظرية تشومسكي النحوية التحويلية التوليدية، إضافة إلى ما أدخل على هذه النظرية من تعديلات متلاحقة. ومن هنا يرى معظم الباحثين في هذا المجال أنه لا بد من تطوير الذكاء

الاصطناعي ليحاكي ذكاء الإنسان. وفعلا حصل أن تطور الجهاز للتعبير عن دقائق اللفظ، إلى جانب التعبير عن متعلقات البديع والمعاني الدفينة، وربط الكلمة داخل السياق الكلامي.

ومع هذا كله فإن الترجمة الآلية بلا شك سوف تريح الباحث والمترجم، وتكسب في الوقت نفسه مساحة بيداغوجية، بحثا عن إدراك المعلومات من شتى القنوات أو من اللغات الأخرى، باستخدام أنظمة الترجمة الآلية من العربية وإليها، والأمل كبير خاصة فيما يحصل عن طريق شركة صخر وباسم وشركة الجيل وشركة العالمية، وما تدره الأنترنيت والانترنايت في هذا المجال. واحتمالات المستقبل في هذا المجال، فهي كفيلة بأن تعطي لنا مالا نتوقعه الآن، حيث يحتمل تطوير الأجهزة التجارية، التي تخدم أغراض السياحة في المقام الأول، وإدخال لغات جديدة في الترجمان الآلي، ومنها العربية. وكذا التحكم في نوعية ودقة الترجمة وفي ترجمة الأفلام، والنهاية غير المريحة تسريح آلاف من المترجمين من عملهم المهني.[12]

ولعله من الأفيد أن نرفع خطأ شائعا، يجعل عمل الترجمان مماثلا لعمل المترجم، ولا يختلف عنه إلا في فوريته، ذلك أن اتفاق العملين في أنهما نقل من لغة إلى أخرى، ولا ينبغي أن يخفى تباين متطلبات الواحد منهما وظروفه عن متطلبات الثاني وظروفه، تباينا يجعلهما مختلفين لأن أوجها عديدة تفصل بينهما:

ينطلق المترجم في عمله من نص مكتوب مغلق مكتمل، ثديم أو حديث، يعرق صاحبه معرفة مباشرة أو عن طريق مطالعة آثاره، أو لا يعرفه البتة لفاصل بينهما في الزمان والمكان، وهو في ترجمته حر الإرادة، ينهض بها متى أراد وفي أي مكان شاء، ود يبدأها ويتخلى عنها، ليعود إليها بعد مدة من الوقت تطول أو تقصر، وقد لا يعود،

ويعمد في ذلك إلى ضروب من معالجة النص، كأن يحلله بالاستعانة عليه بغيره من المعاجم والمراجع والمصادر، ونتيجة عمله تكون نصا مكتملا مغلقا، قد يعرضه للناس وقد لا يعرضه، بعد الفراغ منه مباشرة أو بعد مدة من الزمن، وقد يستهلك بعد نشره وقد لا يستهلك أبدا.

أما الترجمان فينطلق قي عمله من ملفوظ شفوي ، يسمعه وينقله فورا إلى اللغة الثانية في المكان عينه، وبحضور أطراف عملية التواصل الباث والمتقبل، ومن هذا الفرق تنبع أمور لا بد منها. والترجمان طرف في عملية التواصل، يسعى بعمله إلى إثارة رد فعل من جانب المتلقي، لأن التواصل تواصل مباشر، وليس الأمر كذلك في عمل المترجم، الذي يجهل كل شيء عن قراءة ترجمته، ولا يسعى إلى إثارة رد فعل منهم.

يعتمد المترجم على إدراك بصري، فهو يشاهد النص المخطوط ويقلبه، في حين يعتمد الترجمان على إدراك سمعي، وهو لذلك يقدر على الفصل بين الملفوظ وبين معناه، فالمترجم يحلل ويعالج حدفا لغويا، في حين يحلل الترجمان حدثا كلاميا، مما يتطلب أن يكون أكثر تنبها لكل ما هو من غير اللغة وما هو خارج عنها، لا يخضع للتقطيع المألوف فيها. وهل ننسى البون الشاسع بين سرعة عمل الترجمان وسرعة عمل المترجم، فهي تفوقها بنحو ثلاثين مرة حسب المختصين.

من قضايا الترجمة والمترجمين الراهنة:

من المسلم به أن الترجمة كعمل إنما تتخذ قاعدة لها الازدواج في اللغة، والقدرة على تداول الألسن بالنسبة للذات الفردية الواحدة، فالترجمة كاشتغال على النصوص، تستبقه قدرة خاصة عى تلقي لغتين، وفي أفضل الأحوال القدرة الخاصة على تلقي أكثر من لغتين، وهذه

القدرة الخاصة وحدها الكفيلة تقنيا بتجاوز صعوبة بالغة، تتعلق ثنائية النقل والترجمة، ذلك أنه يصح أن نقول إن فلانا "نقل المعنى" من لغة كذا إلى لغة كذا، وأن فلانا ترجم ذات التصور من لغة شكسبير مثلا إلى لغة الجاحظ، على اعتبار أن العلمين هذين كلاهما يمثل بصرامة، قواعد التعامل مع لغة ثقافة كل واحد منهما.

فإذا نحن نقبل هكذا المعنى المنقول، ونحتمل أن تكون له مقابلات مقبولة أخرى عديدة، في حين أن دائرة الاحتمال تنحصر وتضيق تماما، حين يتعلق الأمر بدرجة التصور. إن النقل يفترض معرفة ما، بكل من لغة شكسبير ولغة الجاحظ، أما الترجمة فتقوم على قاعدة الدرجة الخاصة، على تملك واختراق لغة الحضارة الإنجليزية ولغة الحضارة العربية. إن الترجمة ضرورة حضارية بالأساس، وثانيهما أن ثوابت حضارة غير كافية في حد ذاتها لاستقواء هذه الحضارة، وللمحافظة على جوهر تطورها واستمرارها في الزمن، ولهذين السببين، لا يهتم الفاعلون المنطلقون من عمل الترجمة كضرورة حضارية بهذه العوائق الطبيعية، التي يوضع على رأس قوائمها أمر الاستحالة، ذلك أن الناس لو أخذوا هذا السبيل اختيارا ،لما كان للاحتكاك الحضاري ،وفائدته العظمى في تاريخ الإنسانية مكان في تعقل أنشطتهم المشتركة.

لذا فما يعتمد في التفاعل الحضاري، انطلاقا من عمل الترجمة هو الأخذ "بالكليات" المشتركة في الحضارات، وهي كليات من إنتاج "العقل" بمعناه المجرد، أي اعتباره مصدر الدلالات التي يبدعها "اللوغوس"، وليس بمعانيه الثقافية والأنثروبولوجية. ومن هنا يقل شأن أطروحة الاستحالة: إن جميع الحضارات تلجأ إلى القياس والمفاضلة والترابط، والتحليل والتركيب والاستضافة والتناظر. غير أن لمضامين

التي تحملها الحضارات لهذه الآليات النابعة من اللوغوس المجرد، قد تختلف ضرورة طبقا لاختلاف ثوابت كل حضارة.

لقد عرفت حضارات أعمال ترجمة، فقط من أجل تحقيق أغراض جدالية، إما عملية وإما إيديولوجية، نجد الحضارة العربية والحضارة الغربية، من بين هذه الحضارات التي اتسمت فيها أعمال الترجمة بمآلات من نوع المآل الجدالي، وهو ما نتج عنه تداخل بين الرداءة والرقي، في تكوين التيارات وخلق الاتجاهات. أما الأهم في هذا كله، فهو أن الترجمة لا تقصي من الروح الجدالية في البناء الحضاري، سواء كانت نقلا أو أعمال ترجمة خالصة، فلكي يدعم اتجاه ما نظرياته ومواقفه ويسهل تحقيق غايات، لا يجد الطريق إلى ذلك فقط عبر اجتهاداته لهذا المسلك إيجابيات لا ترد. ذلك أنه عن طريق ضرورات الجدل، نكتشف آخر فنحضنه ثم نوظفه، وقد يغضب هذا الاكتشاف آخرين، مما يضطرهم إلى إعادة النظر قي تصوراتهم، وبدون هذه الروح الجدالية وبدون تطعيمها بأعمال الترجمة، ما كان للثراء الحضاري أن يستقيم في أي لحظة من لحظات التاريخ، سواء في عصور بعيدة أو في زماننا الجاري هذا.[13]

تعد الترجمة أهم قناة يمكن أن تجري فيها التأثيرات الدولية، ومن ثمة تكون دراستها ذات أهمية بالنسبة للدارس المقارن. ولكن ثمة طرفا ومناهج عديدة للترجمة ومنها؛ إما أن يترك المترجم المؤلف مكانه قدر الإمكان ثم يحرك القارئ ناحيته، ومنها ما قاله فولتير حين ترجم " هملت " إلى الفرنسية، من أنه لم ينقلها حرفا بحرف وإلا خسر المعنى " فالحرف يقتل ولكن الروح تضفي الحياة "، ومن ثمة ابتعد فولتير في ترجمته للمسرحية عن النص، أما شليجل الألماني فقد نثر شكسبير، واقترب بذلك كثيرا من النص. وقد فرق درايدن الإنجليزي بين ثلاث طرق للترجمة؛ ترجمة الكلمة بالكلمة والحرف بالحرف.

ترجمة الجو والروح العامة حيث يظل المؤلف تحت رعاية المترجم ولكن كلماته لا تأتي حرفيا كمعانيه. الترجمة عن طريق المحاكاة حيث يفترض المترجم أن من حقه حرية تغيير المعنى الأصلي حسب ما يراه، مع أخذ إشارات قليلة من الأصل ثم البناء عليها من عنده.

وقد كانت الترجمة في عصر الملكة إليزابيت يسودها التزويق والمحسنات البديعية بسبب تقدير الناس للصوت، ومع ذلك فلكل عصر طريقته في الترجمة. ولكن مشكلة الترجمة أنها لا تقدر حق التقدير إلا على أيدي من لا يحتاجون إليها. والترجمة لا تحتاج إلى إجادة لغتين من جانب المترجم فحسب، وإنما تحتاج إلى معرفة ثقافتين، أي أن يكون المترجم عارفا وخبيرا بالعواطف وألوان التداعي، والأفكار التي تربط لغة الأمة بحياتها وتقاليدها في كلتا اللغتين.

وللترجمة أثرها على بعض الأدباء والحركات الأدبية، فقد بدأ دستويفسكي حياته بترجمة رواية "يوجين جراندیه" لبلزاك، وكثيرا ما يخطو الأديب هنا من الترجمة إلى التقليد، مثلما حدث مع وولتر سكوت التي شجعته ترجمة الروايات على تقليدها واحتذائها قبل أن يستقل بشخصيته. وفي الوقت نفسه لعبت الترجمة دورا بارزا في الحركة الرومانتيكية في ألمانيا، حتى قال الشاعر نوفاليس: "إن كل الشعر هو في النهاية ترجمة". بل أن الترجمة تصبح أيضا دراسة في الأساليب، لأن كل مترجم يطبع ترجمته بأسلوبه، كما أن دراسة الترجمة لا تنفصل عن دراسة نظرية الترجمة، لا سيما فيما يتعلق الشعر، فالبعض يعتقد أنه قابل للترجمة، في حين يرى آخرون أن الشعر لا يترجم.[14]

وقد لخص نقاد وكتاب الترجمة طرق الترجمة منذ القرن السابع عشر إلى اليوم ثلاث فئات أو طرق أو نظريات؛ تشمل الفئة أو الطريقة الأولى "الحرفية الشديدة"، وفيها تتم مقابلة الكلمات المعجمية

بمثيلاتها ويتم رصدها. أما الفئة الثانية، فهي المحور الأساسي للنقل الأمين، وفيها تعاد الصياغة دون التقييد بالأصل، ذلك أن المترجم ينقل الأصل ويشكل نصا، ينسجه فى منوال لغته، ويمكن أن يستقل ذلك النص بذاته. والفئة الثالثة عبارة عن المحاكاة، وإعادة الخلق، والتحريف والتأويل المماثل، كما أنها تغطي مجالا واسعا، يتراوح من المطابقة مع الأصل إلى الاستعمال الاصطلاحي الأقرب تناولا فالتقليد، إلى أن يصل في أبعد مداه إلى التحرر، الذي قد يكون مجرد التلميح إلى الأصل.

تلكم عموميات، غير أن اللسانيات الحديثة قد فتحت آفاقا جديدة لدراسات الترجمة، فبرز ما يعرف بالترجمة التأثيرية، والتطابق الشكلي بين اللغتين. وهناك الترجمة البائية، التي يتبين القارئ أنها ترجمة، إذ تكون مقيدة بالأصل وتحافظ على تراكيبه وخواصه، وتكون مرتبطة بكيفية معينة بمجتمع وثقافة اللغة المترجم إليها. والترجمة غير البائنة، التي تحتل مكانة الأصل في الثقافة المترجم إليها وكأنه منها، ويتساوى فيها المخاطب في كل اللغتين. وهناك الترجمة التأويلية، التي ترى أن كل ترجمة تأويل.[15]

المترجم باعتباره مؤول، لا يركن فقط لما يصرح به النص، عليه أن يذهب إلى ما وراء النص إلى الخطاب الذي قيدته الكتابة، بل إلى الواقعة الفيزيقية التي أنتجته. عليه أن يبحث في الباطن المحذوف، الذي يشي به المذكور. عليه أن يكشف الغامض لا الصريح الواضح من خلال الحوار والسؤال، لأن لكشف والكشف عن معاني ودلالات النصوص المتقدمة للترجمة، لا يكون إلا بالمساءلة والحوار المفعل للجدل؛ بين الماضي والحاضر والسطح والعمق، والفردي والجماعي.

المترجم وهو يوجه النصوص الأدبية على الخصوص، يكون أمام ممكنات جديدة، كانت خفية في فهم التاريخ، لأن النصوص لا تنشأ من فراغ مكتفية بعزلتها الرائعة، عن السياقات الاجتماعية والتاريخية. والترجمة باعتبارها عملية تنتج لامحالة الفهم التأويل، فهي دائمة السيرورة في الزمان، لا يمكن أن تبنى أو تحدث بنفس الطريقة أبدا، حتى لو عولج نفس النص مرة أخرى وبنفس الملابسات. الفهم كالتأويل ظاهرة نسبية تبنى وتؤسس من قبل المترجم، كعملية متواصلة دائمة الاكتمال والحراك، تتميز بأنها ظاهرة تاريخية لا علمية تنسب إلى مجال الإنسانيات. التأويل ينظر إليه أيضا كمسعى ترجمي، أي عملية ذهنية وإدراكية، تتطلب اجتهادا خاصا وممارسة فعلية تستند إلى ثقافة موسوعة.

التأويل كالترجمة.. إن مسألة التأويل بل الترجمة، لا يمكن أن تقوم على الفهم الفطري التقليدي العام، ولا على المفهوم التاريخي الضيق، ولا على التجربة الذاتية الغارقة في الأنا. إنها قد تجد ما يطمئنها في الظاهراتية، التي ترد لعملية التأويل ما ينقصها من حيوية، بل ترد للفهم عموما وجهه المشروع.[16]

ويدعو "طه عبد الرحمن"إلى ما يسمى بالترجمة "التأصيلية" في باب الفلسفة، عمادها النقل وتعريب الفلسفة، والإقدار على الفلسفة، وتنطبق على كافة الميادين وهي خير أداة للتعريب، لأنها تستوجب الاستيعاب الكامل والخلق والإبداع. وبهذا المعنى يكون النقل هو التبليغ مع التصرف في المعنى المبنى أو كليهما، زيادة أو نقصانا، وتنتهي الترجمة عند الحد الذي يخرج فيه المترجم عن نطاق تركيب النص الأصلي وشكله إذ يزيد فيه ما يزيد عن المعنى أو ينقص منه، قليلا أو كثيرا. وهو ضرب من ضروب التأليف أو منطلق له.

ولا ينحصر هذا الاتجاه في الترجمة التحريرية، وإنما يتعداها ليشمل أيضا الأفلام والمسلسلات والمسرحيات والأوبرا، في إطار ما يسمى بالترجمة المتعددة الوسائط، إذ يجري التفكير في التدخل في الصورة، عوضا عن الاكتفاء بالدبلجة، وذلك لدواعي التكييف الثقافي، وإن أفضل وسيلة في إعادة الإنتاج كلية، مع الإشارة إلى المصدر المقتبس منه من باب الأمانة الأدبية.

ظهرت في الستينات "الترجمة الوسطى"، وكان روادها ينشرون كتاباتهم في دورية " تيل كل "، وهي ترجمة وسطى بين الطريقتين التقليديتين، وهما الترجمة الحرفية والترجمة المؤولة، أي التي تعيد صياغة النص الأصلي في نسيج يجهد في " احترام " طبيعة اللغة المستقلة، ومن دعاتها جاك دريدا. ويرى التفكيكيون أن المترجم، هو الذي يخلق الأصل، كما أن الأصول تعاد على الدوام كتابتها في الحاضر، وما من قراءة أو ترجمة إلا وتعيد بناء الأصل، ولم تعد عندهم للأصل هالة قدسية. ويرون أيضا أنه مامن ترجمة للأصل إلا وتعد انتهاكا له، ومن ثمة يستحيل التطابق الصرف. وتحدث فوكو عن "العملية التأليفية" لا "المؤلف"، وركز على علاقات النصوص بنصوص أخرى، سبقتها في الإطار العام للغة في نطاق ما أصبح يعرف الآن بالتناص. هكذا يكون عمل المؤلف ليس وحي الساعة، وإنما مرتبط بالنظم المؤسسية للزمان والمكان التي لا قبل للفرد فيها.

وإذا كانت الترجمة التأصيلية أو التفكيكية، هي أنفع ترجمة للتعريب بصفة عامة، فإنها لا تصلح في محافل مثل منظمة الأمم المتحدة، التي تتميز بتوازي النصوص في لغاتها، وبذلك تستلزم دقة الأداء، لكي لا تنشب الخلافات السياسية بين أعضائها، واتباع طريقة التصرف بدقة. وإن خير طريقة والحالة هذه هي الترجمة البيانية، التي

تجمع بين بيان العبارة ورونقها إلى أقصى حد في اللغة المترجم إليها والاقتراب من الأصل إلى أدنى مسافة في اللغة المترجم منها.[17]

تتمظهر الذاتية داخل عملية الترجمة بتدخل القدرات اللغوية (اللغة، المصدر، الهدف)، والقدرات الخارج لغوية للمترجم. كما تتجلى الذاتية في عملية الترجمة في اختيار المترجم لطريقة ما في ترجمة النص (الطريقة الحرفية، الحرة، التفسيرية)، فعندما يستخدم المترجم الطريقة الحرفية، فهو يقتصر على تحديد قدراته اللغوية، فيعمد إلى ترجمة اللغة فحسب، وعندما يستعمل مترجم آخر الطريقة الحرة، فهو يترجم إذاك النص - المصدر بشكل حر، فهو يطابق المعنى المضمن بما أراد المؤلف قوله، أما عندما يختار مترجم ثالث الطريقة التفسيرية، فهو يتدخل في الترجمة بمجموع معارفه. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الطرق الثلاث يمكن مصادفتها - في الغالب الأعم - موظفة من قبل مترجم واحد، بل وربما في النص الواحد، فهذه الانتقائية هي المحددة للذاتية، ولهذا لا يمكن الحديث عن أية طريقة في الترجمة. ولهذا نحث المترجم على استعمال الطريقة الحرفية عندما لا يكون المترجم متوفرا على معارف خارج لغوية، أي عندما تنحصر معرفته في لغة النص فحسب. والطريقة الحرة عندما لا يكون المترجم متقنا للغة أخرى، سواء أكانت لغة النص المصدر أو لغة النص - الهدف. أما الطريقة التفسيرية تجعل المترجم غير ملزم بالتدقيق في لغة النص المصدر. وهذه الطريقة تمكن المترجم من المراوحة بين مرحلة الفهم ومرحلة التجريد اللغوي وإعادة التعبير. وبالتالي تجعله يركز على المعنى، وبأن يكون وفيا لهذه المعايير الثلاثة. ولتوظيف هذه الطريقة ينبغي على المترجم أن يتوفر على معارف كافية باللغة - المصدر، وعلى معارف خارج لغوية تلائم اللغة – الهدف وتتحكم فيها.

يمكن أن نصادف في الترجمات اختلاف الأذواق الجمالية للمرحلة الحضارية، المحرمات المبادئ الإيديولوجية. فالمترجم محاصر ليس فقط بلغة العصر الذي يترجم إليه، ولكن بمجموعة من العناصر، ذات نسق خارج لغوي: إيديولوجي، سياسي، جمالي.

إن "الجميلات الخائنات" - على حد تعبير جورج مونان - لا تعمل إلا على تجنب كل ما يتوافق مع ذوق العصر، وتنجز مقارنة جمالية وأخلاقية بين النص والقارئ. وتعتبر الفترة الزمانية التي تمت فيها الترجمة بمثابة معين على مستوى اختيار الطريقة الموظفة في الترجمة. فأهمية النص ونوعيته مهمة في الرغبة في ترجمة النص. فكل فترة تستوجب تحيينا للترجمة، فعندما يكون النص قديما، فإن المسافة تفصله عن زمن الترجمة تضاعف من مشاكل الترجمة، وذلك لأن لغة النص المصدر قديمة، ويمكنها أن تطرح عدة صعوبات في الفهم. ولأن العناصر ذات الترتيب الخارج لغوي والمتداخل في النص المصدر، قد تنغلق معرفته على المترجم، ولهذا نجد دائما تأويلات مختلفة، وحلولا عديدة لتقريب النص من القارئ، كما أن هناك صعوبات تاريخية، تعود إلى حالة اللغة في فترة زمنية معنية.

تعتبر الوظيفية المحدد الثالث للأمانة في الترجمة، وهي متفرعة عن الدينامية، وتتحدد بأهداف الترجمة وإرغامات اللغة. وفي مقابل هذه العناصر، يمكن أن نتساءل إذا كانت الأمانة ستظل هي هي؟ وهل يمكنها أن تتمظهر بنفس الطريقة، أم تأخذ أشكالا مختلفة حسب الحالات؟ [18]

لماذا نترجم؟ وماذا نترجم؟ ومن الذي يترجم؟ ولمن نترجم؟ وما الناشر؟ وكيف نختار الكتب المستهدفة؟ وما مدى علمنا بالمنشور المترجم كله؟

نحن مقبولون على حقبة تثاقف قسري مكثف، أو صراع ثقافي غير متكافئ، وهذه الحقبة أحد مظاهر التحدي الحضاري، سواء جرى التثاقف باسم المتوسطية أو الشرق أوسطية، أو العالمية، ونحن في جميع الأحوال عاطلون من أسباب المناعة الثقافية، التي يمثل العلم والإنتاج العلمي ركيزتها، مما يجعلنا فريسة محتملة، وبدلا من أن يكون التفاعل ثقافيا صحيا، سوف يتراوح ما بين الارتماء على الآخر أو الانكفاء على الذات، ونغدو نماذج لتاريخ انقرض.

إننا نتوقع أن يكون للمؤسسة العربية في ظل هذا المناخ، وفي ظل مواجهة التحديات الحضارية دورها، الذي يفي حاجة أمة تعي عبء مسئولية النهضة وشروطها، وحقيقة التكتلات الإقليمية وتدرك أسس التكافل والتضامن على الصعيد القومي العربي، ومن هنا يتمثل الدور المنتظر في: جمع وتوحيد وتنسيق جهود الترجمة والنشر، والتكافل في التكاليف من أجل إصدار الموسوعات، وعيون المراجع والمعاجم التي تشكل حجر الأساس لأي نهضة علمية. وخلق حركة ترجمة تتسع لجميع التيارات، في تداخلها وتفاعلها وتعارضها في آن واحد، بحيث تكون الترجمة آلية ضرورية، تلبي حاجة ملحة وواسعة النطاق، مما يدعم كلا من التوجه الفكري وحاجة السوق. تجنب الأثر السلبي لطابع الربح التجاري السريع، والاختيار الفردي والعشوائي الارتجالي في مجال الترجمة سواء للكبار أم للأطفال. خلق صلة إيجابية فاعلة مع المجامع العلمية، بغية توحيد المصطلحات وإصدارها ضمن المنشورات لتكون مرجعا. التعاون بين الناشرين بإصدار ثبت ببليوغرافي سنوي بالمنشورات المترجمة، وعرض خطط المستقبل لتكون موضوع حوار، فضلا عن ندوات ليكون الحوار والندوات بمنزلة غذاء، تراجع وتضيف وتصحح وتحفز المناخ.[19]

إن الكتاب القيم - ومعظم الكتب التي تترجم قيمة بالأصل - عندما يترجم بشكل رديء، يخلف في ذهن القارئ المتعطش إلى المعرفة أو المضطر إليها، شعورا بالخيبة والإحباط. وهكذا عوض أن يكون الكتاب المترجم مدعاة لشحذ الوعي وبلورته، وحافزا على قراءة المزيد، يصبح أداة لنزع الثقة عن الثقافة إجمالا، وعنصر إحباط وعدم تشجيع على القراءة بشكل مخصوص. والأسوأ من ذلك أن الترجمة الرديئة تنفر أول ما تنفر أولئك القراء السليمي الأذهان: إذ ينبغي أن يتوفر لدى القارئ ذهن متلبد بالعقيدة أو بشحنة إيديولوجية، تطاول الحدود المرضية حتى يظل مستمرا في القراءة، رغم أن ما يقرأه مبهم ومربك وركيك. وهكذا تؤتى الترجمة الرديئة ثمارها مضاعفة. ومنها خطورتها لا رداءتها فحسب. ثم إن خطر الترجمة الرديئة لا يقتصر على إحباط ذوي الأذهان السليمة وانخفاض القيم الثقافية، بل يتعدى ذلك إلى المساس بكيان اللغة نفسها ويتهدده.

لأن الترجمة مرآة تنعكس فيها لدينا صورة الآخر وصورة ثقافته. فإن لم تكن المرآة مجلوة كما يجب، رأينا فيها صور مشوهة، بل قبيحة وممسوخة. وأدى لدينا ذلك إلى نفور، قد يكون في غير محله من الحكمة. وقد يستغل هذا النفور من قبل دعاة يتصيدون المناسبات لبث دعاوى وخدمة إيديولوجيات. إن مجرد الصورة المشوهة التي تعكسها مرآة الترجمة كفيلة بتشويه علاقة الذات الثقافية بالآخر، وذلك بصرف النظر عما إذا كان الآخر صديقا أو عدوا.

لذا كان القول بأن الترجمة تمرين على حسن الاستعداد الفكري واللياقة الذهنية، يندرج ضمن كونها ضرورة من ضرورات تحسين الوعي بالعالم بصورة مضطردة. ربما كانت إشكالية العلاقة بين الذات والآخر أقرب إلى مشكلة الترجمة، فهي رغم كونها إلى حد كبير إشكالية فلسفية وحضارة، إلا أنها تحكم من بين ما تحكم، ممارسات

عملية شتى تبدأ بالشئون السياسية الكبيرة، وتنتهي بشئون الترجمة، في حال افتراضها صغيرة، لكن العلاقة بين الذات والآخر لاتفهم أيضا إلا في ضوء العلاقة بين الذات وذاتها.[20]

وقد ظلت حركة الترجمة العربية أسيرة اللغة الإنجليزية بالدرجة الأولى والفرنسية بالدرجة الثانية، وذلك في حال من التبادل الذي ارتبط بالصراع على النفوذ الثقافي على الأقطار العربية، ولم يصل إلى مستوى هاتين اللغتين غيرهما من اللغات الأوروبية كالإسبانية والألمانية والإيطالية. فلم يكن للغة من هذه اللغات من الحضور أو التأثير أو النفوذ ما للإنجليزية والفرنسية، اللتين ارتبطا بالحضور الاستعماري والمؤثرات الثقافية المصاحبة له.

ولا سبيل إلى نجاح أي مشروع قومي للترجمة ما ظل المشروع وحيد اللغة، أو أسير اللغتين اللتين تتبادلان الهيمنة الثقافية على الأقطار العربية، وأول النجاح هو كسر دائرة الهيمنة، والانفتاح على كل أقطار العالم ولغاته، ومن ثم ممارسة نوع من الحياد الإيجابي في التخطيط لآفاق الترجمة، وإقامة توازن بين المترجم من اللغات على أساس من تلبية كل منها لحاجة أو أكثر من حاجات مجتمعاتنا، فيما يتصل بقضايا التنمية والتحديث والاستقلال السياسي والثقافي في الوقت نفسه، ونتصور أن العائد القريب لهذا التوازن، هو إشاعة المعرفة بأكثر من طريق للتنمية والتجديد، والقضاء على وهم أن التقدم لا يتحقق إلا بطريق واحد دون غيره، أو مركزية ثقافية لا تعترف بحضور غيرها.

وأما المبدأ الهام، فيتصل بعدم التقوقع في مجال واحد على نحو ما فعلت حركة الترجمة العربية على امتداد عقود متتابعة، حيث كان التركيز على الأدب والإنسانيات والعلوم الاجتماعية بالدرجة

الأولى، وكان المترجم مشغولا بترجمة الأعمال الأدبية، أو الدراسات المتصلة بها في الأغلب الأعم. وهو وضع ترتب عليه ضمور حركة الترجمة في مجالات كثيرة من المعرفة الإنسانية، وعلى رأسها مجالات العلوم التطبيقية، وما يتصل بها من معارف وعلوم لا تتوقف عن التوالد أو التقدم، الأمر الذي أدى إلى تأكيد هامشية العلم في ثقافتنا، وقدم الدليل غير المباشر على أن العلم لم يصبح إلى اليوم مكونا أساسيا من ثقافتنا.

ومصداق ذلك أننا ما زلنا نتحدث عن الثقافة بمعزل عن العلم، كما لو كان العلم غير الثقافة، وكما لو كانت الثقافة يمكن أن تقوم دون العلم، وترتب على ذلك الوضع، مع الأسف نقص شنيع في إعداد المترجمين الأكفاء في مجال العلوم، وعدم الاهتمام بالتخصص في الترجمة العلمية، أو تدريس تقنياتها النوعية ضمن برنامج شهادات الترجمة، التي تمنحها أقسام الترجمة واللغات في الجامعات العربية، ولولا بعض الجهود الفردية المتناثرة، التي يقوم بها بعض رجال العلم المهتمين بالثقافة العامة، وإشاعة الثقافة العلمية في المجتمع، لكان الكتاب العلمي المترجم نسيا منسيا.

والمبدأ الآخر لأي مشروع قومي مجاوز للترجمة، وترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، ولسنا في حاجة إلى تأكيد وهم عملية حرق المراحل الثقافية، أو البدء بالنتائج دون المقدمات، أو إغفال الأصول الكبرى في ثقافات العالم، فعلى الأصول بنيت الفروع، ولا معنى للنتائج في غياب المقدمات، فضلا عن الإنسانية التي تراثها يتمثل في " كتب عظيمة "، لا يمكن تجاهلها في حركة الترجمة.

والاهتمام بالأصول في تراث الإنسانية، لا يعني إغفال المنجزات الجديدة، التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين، وذلك على نحو يصل بين هذا القارئ وهموم الثقافة العالمية المعاصرة كلها.

وهناك مبدأ لا يمكن إغفاله، وهو الترجمة عن لغة الأصل مباشرة، والتوقف دون عن اللجوء إلى اللغة الوسيطة في الترجمة، وذلك لأكثر من سبب، أولها ضمان الدقة الكاملة في التعامل مع الأصل، وقد اعتدنا ترجمة الكتابات الروسية والإيطالية والإسبانية واليونانية، بل الكثير غيرها في لغات العالم المختلفة عن طريق لغة وسيطة، هي اللغة الإنجليزية أو الفرنسية، ويرجع ذلك إلى قلة المتخصصين في اللغات غير الشائعة في ثقافتنا.[21]

وظاهرة نلحظها اليوم كثيرا في ثقافتنا العربية، وهي ظهور ترجمات عديدة لا تنقل النص وتترجمه عن لغته، وإنما تترجم ما يترجم عنه، تترجم ترجماته وتنسخ نسخه. إنها بلغة أفلاطونية، ترجمات لا تنتج الأيقونة وإنما تولد السيمولاكرات، ولنا أمثلة على ذلك، لا في ميدان الفلسفة وحده بل في ميادين أخرى كالأدب واللسانيات، ولكي نبقى في مجال الفلسفة على سبيل المثال، فربما لن نبالغ إن قلنا إن معظم ما لدينا من ترجمات عربية - وهي ليست كثيرة - عن كانط أو هيجل أو فرويد أو نيتشة أو ماركس أو هايدجر، معظم ما لدينا من نصوص عربية لهؤلاء، لم ينقل عن اللغة الأصلية، وإنما عن لغات أخرى.

السؤال الأول والمباشر الذي ينبغي طرحه هنا هو: ما قيمة هذه الترجمات؟ هل ينبغي اعتبارها نسخا ومسخا مزدوجا للنصوص الأصلية، وخيانة مضاعفة؟ أم يلزم أن نعترف لها على الأقل، بقيمة

مؤقتة في انتظار ظهور الترجمات "الحقيقية"، التي تولد النص مباشرة، ولا تولد بناته وحفيداته؟ أم نقول على العكس من كل هذا، إن هذه الترجمات شئنا أم أبينا، هي التي غذت أجيالا بكاملها، وعنها تعرفنا إلى هيجل وماركس وفرويد ونيتشه، وحتى وإن ظهرت الترجمات "الحقيقية" المزعومة والمأمولة، فإنها لن تغنينا عن تلك الترجمات "الممسوخة"، التي أدت دور "النص"، لا بالرغم من تحريفها للمعاني، بل وربما بـ " فضل " ذلك التحريف؟

يسلم الموقف الذي يقول إنه إن كانت كل ترجمة مبدئيا خيانة، فإن ترجمة نص عن غير أصله خيانة مضاعفة، الانتقال من النص إلى ترجماته في رأي هذا الموقف، عملية انحدار وسقطة. إنه انتقال من أصل إلى نسخ، ومن نموذج إلى أيقونات، من عالم المثل إلى عالم المحسوسات. وهو عملية ضياع وافتقار يتناقص فيها المعنى شيئا فشيئا. كلما اقتربنا من النص الأصلي ازددنا قربا من نور المعنى الحقيقي، وقلت خيانتنا للنص المترجم، وكلما ابتعدنا عنه، ضاعت المعاني وتضاعفت الخيانة. خلاصة القول أننا أمام مفهوم أفلاطوني عن الاستنساخ.[22]

إن الحاجة للترجمات في الوطن العربي يتم تلبيتها بالطرق التالية:[23]

- الترجمات التي يقوم بها مترجمون؛ أفراد مستقلون أو مترجمون محلفون الذين يقدمون ترجمات في أنواع مختلفة كالوثائق والعقود.

- الترجمات التي تقدمها شركات الترجمة الخاصة، والتي تلبي الحاجة إلى تقديم الجزء الأعظم من العمل، وتقديم الترجمات القانونية التي يتطلبها المقاولون والمحامون.

- الترجمات التي يقوم ناشرون خاصون، يعملون بشكل خاص في مجال الترجمة الأكاديمية والأدبية، وتختلف الترجمات من ناشر إلى ناشر.

- الترجمات التي تقوم بها أقسام الترجمة في وزارات عدة كوزارة الثقافة والعدل والدفاع، وفي الجامعات والجهات الأخرى، مثل الصحف والشركات الخاصة، وتتحمل جميع هذه المؤسسات العبء الكبير في ترجمة المواد الجادة والأكاديمية، ولا بد هنا من ذكر الترجمات التي تقدمها مراكز البحوث، التي تكرس نفسها بشكل خاص إلى ترجمة الكتب والمقالات العلمية والفنية، حيث غالبا ما تكون هذه المراكز صارمة في انتقاء المترجمين ومواد الترجمة، بحيث يكون الناتج من نوعية عالية الجودة.

- الترجمات التي تقدمها المنظمات الاقليمية أو المحلية؛ مثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والتي تقدم ترجمات عالية الجودة، ولا سيما الكتب والمقالات الجادة الواردة في المجلات والدوريات.

هوامش:

1 - حسن قبيسي: المتن والهامش، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، بيروت 1997، ص: 271

2 - طه عبد الرحمن: الحق في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت - 2002، ص: 151

3 - أحمد عبد العزيز: نظرية جديدة للأدب المقارن، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة - 2002، ص: 142، 149

4 - عبد الله الحميدان: المقومات الذهنية في عملية الترجمة، مجلة فكر ونقد، المغرب، عدد 10، يونيو - 1998، ص: 84، 87

5 - إبراهيم زكي خورشيد: الترجمة ومشكلاتها، الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1985، ص: 30

6 - محمد إبراهيم مبروك: الترجمة، كيف تصوع مبدعيها؟ مجلة العربي، الكويت، العدد 518، يناير - 2002، ص: 34

7 - عبد النبي ذاكر: الترجمة الفورية، تقنيات التأريخ، وتاريخ التقنيات، مجلة المترجم، مخبر تعليمية الترجمة وتعدد الألسن، جامعة وهران1، العدد 6، ديسمبر - 2002، ص: 12، 13

8 - محمد شاهين: نظريات الترجمة وتطبيقها في تدريس الترجمة، مكتبة الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن - 1998، ص: 46

9 - المرجع السابق، ص: 74

10 - شحاتة الخوري: الكتاب المترجم، المجلة العربية للثقافة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، العدد 4 - 1983، ص: 71، 72

11 - محمد شاهين، نظريات الترجمة، مرجع سابق، ص: 76

12 - صالح بلعيد: دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة، الجزائر- 2003، ص: 200، 202

13 - مصطفى خلال: الأبعاد الثلاثة للترجمة، مجلة فكر ونقد، االمغرب، العدد 10، يونيو - 1998، ص: 90، 92

14 - س.س.بروور: مدخل للدراسات المقارنة، ترجمة وعرض علي شلش، مجلة الفيصل، السعودية، العدد 88، يوليو - 1984، ص: 86، 86

15 - محمد الديداوي: الترجمة والتواصل، دراسة تحليلية لدور المترجم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت - 2000، ص: 83

16 - عيسى بريهمات : الترجمة والتأويل، مجلة المترجم، مخبر تعليمية الترجمة وتعدد الألسن، جامعة وهران1، العدد 1، جوان - 2001، ص: 93، 94

17 - محمد الديداوي: الترجمة والتواصل، مرجع سابق، ص: 81، 82

18 - المصطفى مويقن: مفهوم "الأمانة" في الترجمة، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد 10، يونيو - 1998، ص: 126، 127

19 - شوقي جلال: نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة، مجلة العربي، الكويت، العدد 453، أغسطس - 1996، ص: 56

20 - حسن قبيسي: المتن والهامش، مرجع سابق، ص: 295، 296

21 - جابر عصفور: حول المشروع القومي للترجمة، مجلة العربي، الكويت، العدد 494، يناير - 2000، ص: 103، 104

22 - عبد السلام بن عبد العالي: الخيانة المضاعفة، مجلة فكر ونقد، المغرب، العدد 2، أكتوبر - 1997، ص: 70

23 - محمد شاهين، نظريات الترجمة، مرجع سابق، ص: 46، 47